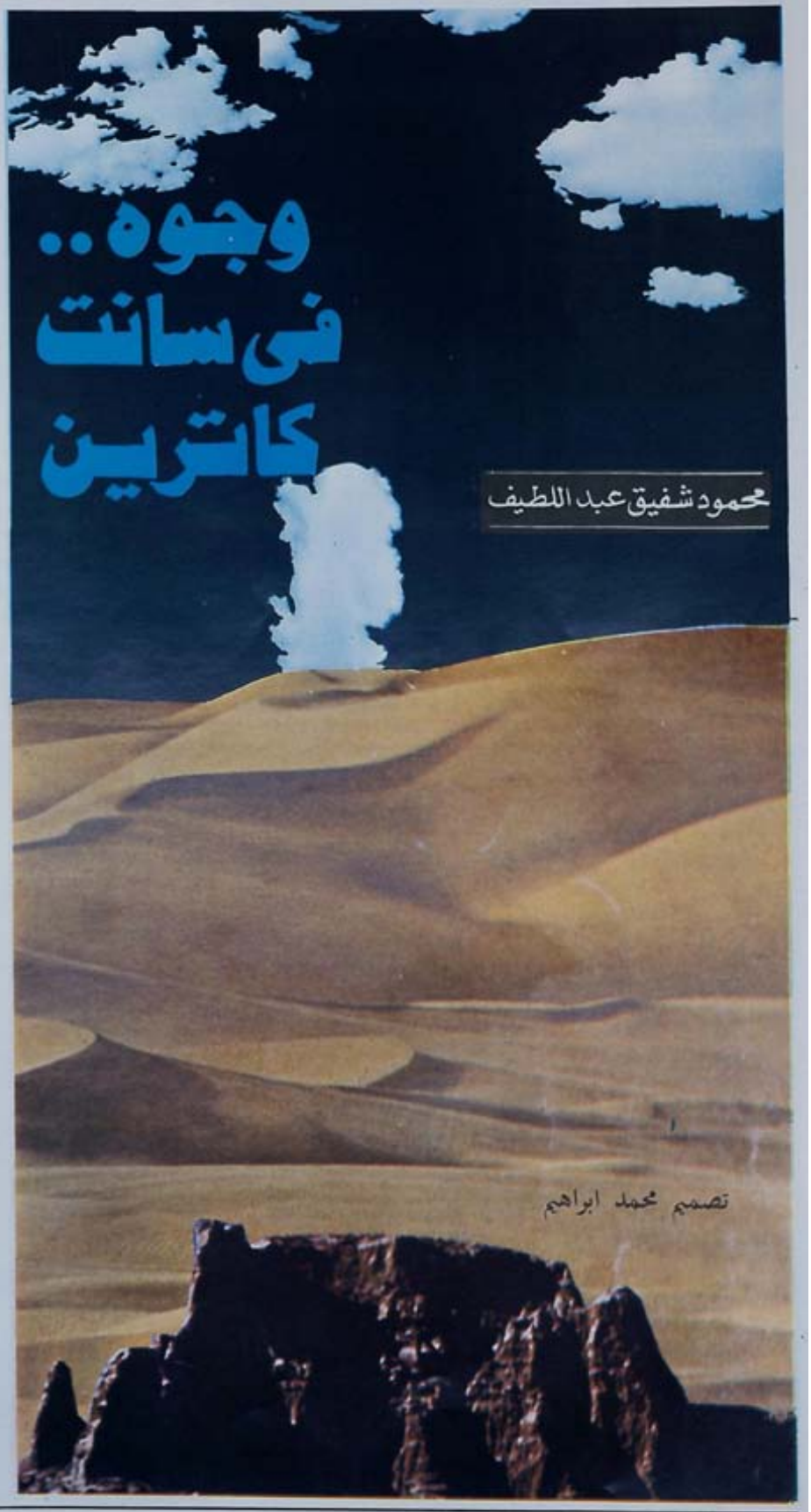

خيم الصمت على الصحراء . . وأطبق السكون فى جنبات التلال والوديان . . وترامى الجبل شامخا فى هدأة الأبدية . . كل هذا بدا واضحا أمام الشيخ المسن الذى ناهز التسعين وهو قابع فى بيت متهالك مع زوجة عجوز ذهبت السنون ببصرها . فلزمت باب الدار طيلة النهار لاتتحدث إلا عن بنيها الذين رأحوا فى حومة الوغى وسط اصطلاء الحرب بنار العدمية الموغلة فى الفناء . .

إن الشيخ « سالم أبوستة » هو الذى لم يرد أن يبرح المكان برغم ماصبه اليهود عليه من نيران . . إلى جانب الحصار المستمر . . فقد ظل يجسد معنى الإصرار لأولاده الثلاثة على أن تراب الأرض هو الخالد فى تاريخ الأبدية . . والإنسان جاء من التراب وسيعود اليه . . فالخلود فى رؤية الشيخ « سالم أبوستة » خلود معنوى أساسه حسى . .

لم يقتل ذلك الصمت عند الشيخ سالم إلا ساعات يقضيها مع الراهب الطاعن فى السن « دانيال » راهب الدير . . حيث يجلسان معا يتحدثان عن تاريخ المنطقة . . وكيف وفد رفات القديسة « سانت كاترين » إلى المكان بحثا عن الأمان . فى جوف هذا الصمت . .

كان الشيخ سالم ودانيال نباتيين . . يعيشان على القليل من الطعام والشراب مولعين بالحركة والتنقل حول المكان مستذكرين تاريخ الأنبياء السابقين وسيرهم . . فكانت لهما آراء فى الواقع والتاريخ . . وفى أوقات العبادة يؤم كل منهما مسجده أوكنيسته . . حيث تتجلى القلوب مع خشوع المكان ورهبته ... وكانت « مارى » الراهبة ترافقها إلى حيث يكون المجلس فهى سيدة . جاءها يخط لجاعيد السنين . فقد ناهزت السنين ولزمت الدير . . تدمع عيناها حين تتذكر فى مخيلتها القديسة . . وتكاد تغيب عن وعيها تجليا ورهبة من صاحبة الدير . . تجدها لا تتحدث كثيرا . . تسمع أكثر مما تتكلم . . وهى التى ترافق زائرات الدير من الوافدات إليه من جنسيات مختلفة تشرح لهن قصة حياة القديسة . . وسبب قدوم مجيئها إلى هذا المكان النائى عن العمران . . القابع فى جوف الصحراء . .

□ □ □

وترامت عبر الأفق خيام للبدو التى انتشرت عند بطن الجبل . . وبدت الإبل وهى ترعى فى السهول المجاورة بينما قبعت الأخرى على مقربة من الخيام وراح الصبية يمرحون والنسوة ينشطن فى جمع الحطب . . إن المكان يموج بالحركة الدائبة . .

□ □ □

وقطع صخب العربان وحركتهم وصول سيارة نزل منها رجل وسيدة . . وراحا يتأملان وجوه الصبية حتى أقبل « حمدان » وهو رجل فى الخمسين تفاهم معهما بالإنجليزية التى يحسن التخاطب بها . فأخبراه بسبب قدومها إلى هذا المكان النائى المنعزل . .

إن « حمدان » أعرابى من البدو كثيرا ما يرافق السياح القادمين إلى المكان ليشرح لهم تاريخ المنطقة كما يرافقهم إلى حيث يريدون سواء إلى المسجد . . أوكنيسة سانت كاترين .

□ □ □

أخذت السيارة تسير ببطء قاصدة الدير . . ولم ينقطع حديث « حمدان » لهما عن المنطقة . . وعن المدرسة الصغيرة

التى أقامتها مصر . . وهى المدرسة التى يدرس فيها العديد من شبان العالم علوما عن طبيعة المكان . . جوه . . وجغرافيته . . وجيولوجيته . . المدرسة متواضعة المبنى . . تقوم فى حضن الجبل . . وعلى مقربة منها توجد خيام لإقامة المدرسين تباعا . . وتوقف الرجل ليتعرف على هذه الحقائق التى لم يألفها من قبل .

□ □ □

ثم قادهما « حمدان » إلى الدير . . وتوقف الرجل وزوجته مشدوهين . . وقد غابت نظراتهما فى هذا البناء وما حوله . . وكأنهما يقولان أشياء وسط هذا السكون المطبق على المكان . . وغاب « حمدان » دقائق ليعود ومعه « الراهب دانيال » ذلك الذى حدج القادمين بنظراته . . لكن سرعان ما دار الحديث . . ثم توجه الثلاثة إلى الاستراحة ليجلسوا الساعات بعد أن رجع حمدان الذى انتهت مهمته . .

ظل الحديث واقعيا عن أمور شتى . . نسى فيه « ريمون » و « ماريان » الوقت الذى ينقضى بسرعة وسط أحداث الذكريات . . فقد قدم « ريمون » وزوجته « ماريان » إلى المكان بحثا عن الغلام المفقود « آرى » ذلك الذى يبلغ من العمر خمسة عشر عاما وتركاه فى إسرائيل منذ عشر سنوات بعدما فرا من الحياة فيها . وكانت لسبب فرارهما قصة . . أثارت دهشة « دانيال » الراهب . . هذا إلى جانب الرغبة النفسية لزيارة الدير والأماكن الأثرية . . . وأشياء سيبنى عنها المستقبل . .

قال « ريمون » . . – لقد خرجت من إسرائيل منذ عشر سنوات . . مع زوجتى اليهودية هذه « ماريان » . . أنا مسيحى . . وهى يهودية . . تزوجنا وغادرنا بولندا إلى اسرائيل للعمل بالسياحة . . إلا أنه لم تكن للحياة معنى . . فقررنا مغادرة البلاد . . لكن دون جدوى . . وثارت قضية أمام المحاكم الاسرائيلية . . حاولت فيها تبرئة نفسى من اليهودية التى ألبستها فى السلطات هناك . . بحجة زواجى من يهودية . . وبما أن زواجى من يهودية قد حدث فإن ابنى « آرى » يهودى بالطبع . . وكان واضحا عدم رغبتى فى الإقامة فى إسرائيل . . لكن هناك عقبات وضعتها السلطات أمام مغادرتى للبلاد فقد فعلت الكثير نحو تطوير السياحة . . وحين شعروا بأنى أحزم حقائبى لأستثمر خبراتى خارج الحدود . . . وضعوا العراقيل أمامى . فأضطررت إلى ترك « آرى » حتى أوهمهم بعودتى . . والآن جئت بعد تغير الأوضاع لأبحث عن الغلام المفقود . .

وبدت الدموع تنزف فى هدوء من عينى « ماريان » تلك التى تتوارى خلف نظارة سوداء كبيرة وصمت « دانيال » . . وأطرق برأسه . . – حقا . . لقد أتينا مع شمس يوم جديد . . ولكن . . ماذا تقصدان بعد ؟ . . قال ريمون ستوجه إلى قرية « دبمونه » فى النقب . . نحن نعلم أن آرى هناك . .

وسحبت مارى « ماريان » فى هدوء . . وتجولت معها على امتداد السور الكبير . . كان الحديث يدور عن الماضى . . وفاجأت « مارى » ماريان بأنها يهودية . . قالت ماريان – هل جئت إلى الدير لإخفاء يهوديتك . . قالت مارى – أنا لا أخفى يهوديتى . . شىء واحد أحب أن أوضحه لك يا ماريان . . هو أن اليهودية دين ككل الأديان . . لكن الصهيونية هى التى تشوه قدسية اليهودية . . أمثالى هم اليهود الخلص الذين يفهمون اليهودية كدين . . بعيدا عن التعاليم الزائفة . . قالت « ماريان » – وأنا أيضا أعتقد أن اليهودية ليست بالقيود المفروضة فى حاجز جغرافى ضيق . . لهذا فضلت أن أتزوج من « ريمون » وهو مسيحى وأن ألبث جو السماحة والحب . . والتعايش مع الآخرين . . إننى أحمل فى نفسى عقدة « جاليا » السيدة التى انتحرت أمام وطأة العمل المرهق . . بعد أن فقدت زوجها وولديها فى الحرب . . فقد حاولت أن تتقرب إلى « جامعة » حراس المدينة « الدينية لكن دون جدوى . . وأمام ضيق الحياة فى عينيها فضلت الانتحار . . لعن الله الحرب . . وحالة الحرب . وقالت مارى – لكن . . هل هناك أمل فى لقاء « آرى » . . . ؟

قالت – أجل . . إنه يعيش فى قرية دبمونة فى النقب . . هناك أحد اليهود السود يؤويه عنده . . فى مزرعته الصغيرة . . لكن المشكلة أن « ريمون » لن يستطيع الذهاب معى إلى هناك . . لأنه يعانى مرضا وأخشى أن تفاجئه الأزمة . . – ولكن مع فتح الطريق . . تستطيعين يا ماريان الذهاب إلى هناك . . إن هذه المنطقة كما تعلمين ممنوع التجول فيها . .

– سأحاول الوصول . . وبأى ثمن .

□ □ □

كان الجو صحوا . . والصحراء صامتة هادئة . . وقد بدا « دانيال » و « ريمون » و« ماريان » وهم يتجولون فى المكان . . ولحق بهم الشيخ « سالم أبو ستة » . . وكان الحديث يدور حول مستقبل المنطقة . . فالشيخ سالم شخصية معروفة لدى القبائل المستقرة والرحل . . وهو يؤمن بالتمسك بالطبيعة فى كل شىء . . حتى فى التداوى من الأمراض . . كما أن وصافته كثيرا ما تشفى الأمراض المتنوعة . . فراق حديثه لريمون وماريان . . وكانت « ماريان » تسأل عن كل شىء . . حتى عن معنى الحب ومفهومه فى هذا المكان المنعزل . . وكانت إجابات الشيخ واقعية . . إن الحب هنا طبيعى . . غير ملوث بالمصلحة . . أو المنفعة . . فالناس هنا يتامون فى هدوء وملء جفونهم . . ويحيون بملء قلوبهم . . فالحب هنا روحانى مجرد . .

والتقى بهم « حمدان » ذلك الرجل الذى يرافق سياح المكان . . إنه رجل ممتاز بالمرح وخفة الدم . . واللباقة . . وراح كل ينظر إلى المكان من رؤيته الذاتية . . ووصل ركبهم إلى أطراف القرية حيث أرخى الليل سدوله . . ودعاهم « حمدان » إلى منزله . . إنه منزل متواضع . . وبدت أصوات الغناء والطرب تنبعث من هناك . . على مقربة منهم . . وغابت « ماريان » و« ريمون » مع النغم الجديد . . ولا حظ « حمدان » فصحبهما إلى الحلقة حيث شاهدا رقصات البدو وطربهم . . وهم حول النار الموقدة . . وكانت نظرات الصبية لا تفارق شبحى « ريمون » وزوجته اللذين ظلا مشدوهين للغناء والطرب . . وجلوس الصبية على الأرض فى حلقة حول النار . . كانت نظرات « ريمون » تحمل أكثر من معنى . إنها تفسيرات للناس هنا . . وللمكان . . ولمستقبل

الحياة هكذا . . إن كل السكان يؤمنون بالمحافظة على طبيعة البيئة . . لكن ربما تمكن إضافة شىء ما إلى هذه الطبيعة الخالدة . . ومال « ريمون » برأسه على زوجته التى تسمرت مشدودة للنغم . . وقال ماذا لو أقيم مشروع سياحى هنا . .

– كيف . . ؟ إن الحياة هنا محدودة يا ريمون . .

– سيكون المشروع مقاما على يد عرب المنطقة . . فالسياحة لا تتقيد بالبحار والأنهار والحدائق . إن السياحة هنا سيكون لها طابع آخر . . هو معايشة جو المكان . . سوف يقبل على هذه المنطقة طلاب الراحة النفسية والجسدية . . بل طالبو الدواء من كنوز الطبيعة . وأعتقد أن الشيخ سالم أبو ستة له رأى فى هذا المشروع يا ماريان .

– اعرضه عليه . . وعلى الراهب دانيال . . لكن المهم . . أن نلتقى بآرى بأى ثمن . .

□ □ □

جلس ريمون « و « مارى » على سريرهما فى الفندق الوحيد بألدير . . وصمت الليل يسود المكان . .

وتناول ريمون صحيفة مصرية وراح يستجمع بعض كلمات كان قد تعلمها فى الجامعة العبرية منذ التى عشر عاما . . أما « ماريان » فراحت تنظر إلى النافذة . . وبدت شاردة الذهن حول مصير الشاب المفقود « آرى » وكيف الوصول إليه ؟ . . أمامها مشكلة تتجسد فى محيلتها هى . . أن « ريمون » لا يقوى على السفر ساعات إلى « دبمونة » فهو يعانى مرضا لا يتحمله مع تبعات السفر . . وألقت على مسامع « ريمون » بهذا السؤال – ريمون . . هل سنعود إلى (تكساس) دون الوصول إلى « آرى » . . ؟

– ومن قال إننا سنعود إلى تكساس يا ماريان ؟

– هل سنبقى هنا ؟ . . وكيف ؟ . .

– لا أقصد . . سنقيم هنا حتى نصل إلى آرى بأى شكل . . بعدها نقرر متى سيكون السفر . . وربما سيكون سفرنا إلى تكساس قصيرا . . بعده نعود إلى هنا لشىء ما .

ومالت ماريان إليه وهمست فى تساؤل . . هل تستطيع أن ترافقنى إلى دبمونة ؟ . . إننى أخشى عليك من إرهاق السفر . .

– أستطيع إذا كانت هناك طائرة . . وإلا فلا . . كما تعلمين . .

– سوف يصحبنى « حمدان » فى هذه الرحلة .. إنه لن يرفض .. أعتقد ذلك .. وسأتخذ الإجراءات ..

□ □ □

وبدت خيوط الغد تتجسد فى مخيلتها وهما مستلقيان على فراش القلق طيلة الليل .. ولم يقطع تلك الخيوط إلا صوت الشيخ سالم أبوستة وهو ينادى لصلاة الفجر من فوق المسجد .. وأحس ريمون بأن شيئا ما يوقظ مشاعره نحو ذلك الهاتف الداعى إلى اليقظة من غفوة النوم .. إلى الوقوف بين يدى الله .. إن هذا النداء يحمل معنى .. وقام ريمون .. وارتدى ملابسه .. ليلتقى بالشيخ المسن على باب المسجد .. وراح يخاطبه فى أمر ما .. ورد الشيخ قائلا – إن « حمدان » رجل شهم .. ولن يرفض مرافقة الزوجة إلى ديمونة .. إنه عمل إنسانى ولن تكون هناك صعوبات بعد فتح الحدود التى أوصدتها غيبة العقل أكثر من ثلاثين عاما ..

□ □ □

كانت جلسة الشيخ سالم أبوستة توحى بالأمل .. والاطمئنان .. فقد تجمع حوله أهل القرية .. وكانت آراء الراهب دانيال موفقة .. وتلتقى فى مفهومها مع وجهة نظر الشيخ سالم من أن المنطقة ستكون نقطة سلام .. نقطة تحول كبير فى الساحة السياسية .. ولأول مرة يفصح الراهب عن الذين لاذوا بالدير من اليهود .. جاءوا فرارا من الحرب .. وقسوة الحياة . وكان هذا التصريح مثار دهشة الحاضرين .. ومنهم « ريمون » الذى وقف ليقول على مسمع من الجالسين ..

– سيدى الراهب .. من منا لا يحب الحياة .. ؟ ! إن الذى يريد الحياة يسعى إليها فى بطن الحيل .. إننى لم أشعر بوجودى إلا عندما أتيت إلى هذا المكان .. أحسست هنا بأنى أتراجع نفسى عن أخطاء سنين .. وعلى الآن أن أفعل شيئاً .. من أجل الحياة .. لمن يريد الحياة هنا .. إنها حياة من لون آخر .. حياة تعايش الطبيعة التى خلقها الله هكذا .. ماذا تقولون أيها المسلمون .. ويا أيها الرهبان ؟ .. إن الحياة ليست ملازمة المسجد أو الدير .. بل الحياة أن نعمل من أجل غد جديد هنا ..

وقاطعه الشيخ سالم – لافض فوك يا أخى .. يقول الله تعالى « والأرض بعد ذلك دحاها .. أخرج منها ماءها ومرعاها .. والجبال أرساها .. متاعا لكم .. ولأنعامكم » ولقد كان النبى موسى عليه السلام يرعى الغنم لكاهن مدين .. وينشئون القرى ويحفرون الآبار . انظر كيف فعل داود وسليمان .. لقد عمرا الأرض .. وكان عيسى عليه السلام يدعو للعمل .. والحب والتآخى .. « المجد لله فى الأعالى .. وعلى الأرض السلام .. وبالناس المحبة » .

قال دانيال الراهب – إنك لم تترك فى شيئا أقوله يا شيخ سالم .. فالله سبحانه وتعالى قد خلق الناس جميعا وجعل فهم حقا فى الحياة .. فلنتزع القذى من عيوننا حتى نرى الحقيقة بوضوح ..

□ □ □

وفى عصر اليوم التالى تشهد المنطقة زفاف أحد العربان .. وتجمع أهل القرية فى الساحة

الشرقية .. ليكونوا حلقة من الرقص والإنشاد .. وبدأ « حمدان » يجهز فرسه التى يدور بها حول الحلقة .. ثم يصعد الجبل .. ويعود إلى وسط الحلقة الواسعة ليراقص فرسه على أنغام المزمار ودقات الطبول .. ووقف « ريمون » و « ماريان » فى الحلقة وهما مشدودان إلى رقصات الفرس .. وهى تحيى الحاضرين برفع قدميها الأماميتين .. حتى ريمون وماريان .. توقفت الفرس طويلا لتحيتهما ... والتف العربان حول « ريمون وماريان » .. إنهما وجهان جديدان فى المنطقة .. وراحت عيون ريمون وماريان تتفحص وجوه الصبية .. فتذكرا وجه « آرى » المفقود .. ونظرت « ماريان » إلى « ريمون » نظرة ذات معنى .. إنها تعنى الصبى المفقود .. هل سعيد .. ياسم .. مثل هؤلاء ؟ هل هو قوى البنية مثلهم .. ؟ ..

ووسط جو الظلام الذى بدأ يتسلل إلى المكان .. توجه ريمون وزوجته إلى الفندق . واستلقت « ماريان » على السرير .. فى صمت .. بينما راح « ريمون » يتصفح الصحف .. فى هدوء وبطء .. محاولا تبين بعض التعبيرات .. أخيرا اتجه إليها ليخبرها بشىء ما .. سيستطيع أن يقيم مشروعا سياحيا يتميز عن كل المشروعات .. إنه مشروع يتمشى مع طبيعة المكان .. ستكون سياحة من لون آخر .. سياحة نفسية قبل كل شىء .. وابتسمت « ماريان » .. وعانقته فى هدوء بينما نظراتها تتفحص عينيه فى عمق .

□ □ □

عاد الشيخ « سالم ابوستة » من صلاة الفجر كالعادة .. ليجد زوجته تجوب الدار تتحسس الأماكن بيديها .. فقد أفقدتها السنون بصرها .. وسمعت نداء ..

– ياست الستات .. إن نسيم الصباح منعش .. أما تريدين السير معى فى الوادى ؟

– إن السعال يكاد يقتلنى يا شيخ .

– سعال .. أى سعال .. إن هواء الصبح يشفى القلب ..

ونأبط الشيخ ذراع زوجته .. رفيقة عمر طويل .. فهى الزوجة الثالثة والأخيرة فى حياته كان الحديث شائقا .. وتذكرت السيدة أيام العدوان .. يوم سقط طيار إسرائيلى بطائرته على مقربة منها .. وشهر السلاح فى وجهها مهددا .. لكنها اكتشفت حيلته .. إنه يريد الأمان .. يريد الطعام والماء .. يومها فاجأته بالحقيقة .. قالت له .. إنك إن كنت تريد قتلى فلن تقتل الآخرين .. ثم ماذا ستكسب من وراء الحرب .. ؟ .. لحظتها أدرك الطيار الحقيقة .. وراح يقص عليها مأساته .. أجل يا سيدتى .. فى مقدورك أن تقتلينى .. أنا لن أقوى على مهاجمتك .. إننى مرهق .. أكاد أموت جوعا وعطشا .. إن الجزالات دفعونى للموت .. والآن أردت أن أنتقم .. بإحراق الطائرة .. لأولد بهذا المكان .. هل لديك ماء وطعام .. وقدمت له كل شىء .. حتى غاب يوما .. وعاد ليقول لى إنه سيقتل نفسه .. هنا .. فقلت له حتى لا تجر القوم إلى انتقام بنى جلدتك .. فأسلم قيادك لهم .. وأرجو ألا تعود . ونظر الطيار إلى فى أسى ومرارة .. وحمل ما جدت به عليه من طعام . وغاب وراء الأفق وعيناه تقولان شيئا .. ينبىء عن الثناء .. قال الشيخ – ذكريات .. لقد رأينا وجوها متعددة كلها تحمل مأساة الحرب .. واليوم آن لنا أن نتجول فى أى وقت ..

□ □ □

ويسمع الشيخ صوت « حمدان » ذلك الذى نزل من فوق ظهر بعيره .. وابتدر حمدان الشيخ مستوضحا منه وجهة نظره فى مرافقة السيدة « ماريان » إلى ديمونة فى النقب .. وكانت إجابات الشيخ مطمئنة لحمدان .. إن الشيخ سالم بعيد النظر وله رؤية لما بعد الواقع .. فقد تنبأ بالسلام .. ووضع له أصولا كانت محققة لآمال العربان .. وللمنطقة السياسية كلها .. ووضع الشيخ سالم أبوستة يده على يد « حمدان » قائلا – حمدان .. إن مرافقتك لهذه السيدة اليهودية من أجل عمل خير .. سيذيب أخطاء سنين طويلة كنا نجسدها فى مخيلتنا .. والآن عاد العقل ليرسم لنا خيوط الواقع .. لقد كنا فى غيبة .. لذلك خسر اليهود الكثير وخسرنا نحن أيضا ..

وتقدمت السيدة العجوز التى ذهبت السنون ببصرها من « حمدان » لتقول له .. إنهم كانوا يفضلون الموت انتحارا .. على الحرب . وأبلغ ! ..

وتقدمت السيدة العجوز التى ذهبت السنون ببصرها من « حمدان » لتقول له .. إنهم كانوا يفضلون الموت انتحارا .. على الحرب .. وأبلغ مثل على ذلك .. الطيار الذى أحرق طائرته وهبط على مقربة من الجبل .. وجاء سعيا إلى هذا المكان ليجد ماء وطعاما .. بعدها أصر على الانتحار حتى لا يعود لاستئناف الحرب .. إنها حرب خاسرة يا ولدى .. لقد منعته أن يقتل نفسه وقلت له إن الانتحار ليس من شيمة الرجال .. ابق على حياتك يا فتى ..

وبدت « مارى » و « ماريان » تتحدران من قمة الجبل وهما تقصدان الدير .. إن كلاً منهما يهودية .. فمارى تحمى يهوديتها حتى تعيش حياة هادئة فى رحاب القديسة العذراء .. تعيش على القليل من الطعام والماء .. وكانت الراهبات يتعلقن بها .. لأنها إنسانة مؤمنة .. ذات قلب كبير .. تتحرك دائما فيما يشبه الهمس .. وقالت ماريان – هل هناك شىء يربطك بهذا المكان يا مارى ؟

قالت – نعم .. إن صاحبة الدير هى التى تربطنى به .. إنسانة قديسة عصامية حياتها كانت ملحمة من المعاناة يا ماريان .. فقد تمسكت بالعقيدة حتى الموت .. إنها مثال حى للعشق الأبى والحب .. وهى كما تعلمين .. مصرية من الاسكندرية . استشهدت وهى دون العشرين عام ٢٠٧ ميلادية على يد « ماكستوس » الذى قطع رأسها لأنها تمسكت بمسيحيتها وعقيدتها الدينية .. وقد طلب أن يتزوجها حاكم المدينة لكنها رفضت .. وكثيرا ما أنذرها امبراطور روما بإرسال وفود التهديد لها . لكنها كانت قوية الإيمان حتى إنها كانت تؤثر فيهم فيؤمنون بالمسيح عيسى ..

وتطلعت « ماريان » إلى صورة المسيح على الجدار داخل الدير .. وهو يضع خاتم الخطبة فى أصبع القديسة « سانت كاترين » وهو يبدو صبيا .. وألقت نظرات سريعة على الرهبان الجالسين فى الدير .. ثم عاد بصرها يتفحص الصورة .. ولاحظت « مارى » إمعان « ماريان » فى الصورة التى تشد انتباهها .. فجذبتها بعيدا وراحت تشرح لها ما بدا فى مخيلتها من تساؤلات .. قالت مارى – إن الروايات تقول إن القديسة قد خطبت للسيد المسيح .. فقد جاءها فى المنام .. وأحست بنوره .. وهو يمديده لها .. قالت ماريان هل كان يريد خطبتها حقا يا مارى ؟

قالت – إن هذه الخطبة .. الرمز العظيم للربط الحقيقى بين العشق الأبى والتمسك بالعقيدة الدينية المثالية .. برعى وبصيرة .. فالإنسان بدون عقيدة آلة صماء .. لأن العقيدة نبع الحياة .. والإحساس بالوجود .. ككائن متغير ..

وتناولت « ماريان » منديلها تمسح الدموع التى ملأت مآقيها فى هدوء .. وعيناها تتفحصان الرهبان الذين جلسوا فى خشوع وقد اتصلت قلوبهم بالله .. إن هذا المكان هو معيار النقاء النفسى من شوائب الدنيا ..

□ □ □

وظهر الشرود على وجه « ريمون » وهو بالفندق .. وحركته « ماريان » برفق .. وجلست أمامه وعيناها تكادان تدخلان إلى أعماقه .. قالت ماريان ..

– ريمون .. لقد قررت أن أبقى هنا إلى الأبد ..

– وأنا .. لقد اتفقت مع الشيخ سالم ورجال المنطقة أن نقيم مشروعا سياحيا هنا .. مشروعا من لون آخر يختلف عن السياحة فى أى بلد .. إنها سياحة تتمشى مع البيئة .. سياحة للروح والجسد معا .. سياحة بلا ترفيه تقليدى ..

– حقا .. إن علينا أن نصف أعمالنا فى تكساس .. لنقيم مشروعات جديدة هنا .. فلدى العرب أبد عاملة ..

– والخبرة أيضا يا ماريان .. أما سمعت بمشروعات آبار المياه التى ستدفق فى المكان لزرع مساحات كبيرة من الأرض .. ؟

– حقا .. لكن .. الذى يشغلنى هو عودة « آرى »

– لدى أمل فى عودته .. لوكنت أستطيع أن أذهب إلى ديمونة لفعلت من أجله .. لكن .. حمدان هو الذى سيرافقك إلى هناك .. فقد سبق له أن ذهب إليها مرات عديدة ..

□ □ □

قطعت الطائرة الطريق إلى « العقبة » فى وقت قصير .. وظلت « ماريان » صامتة وهى جالسة مع « حمدان » .. إنها مشدودة إلى « آرى » وكيف يكون ؟ .. إن شكله قد تغير حقا .. وأحسا بالحياة فى مدينة العقبة .. زحام .. وحركة نشطة .. جنسيات مختلفة من العرب الذين يعملون فى مرافق المدينة المطلة على البحر .. وبدا خطان من الأفكار يتحركان فى مخيلة كل منهما .. « حمدان » يحمل الواقع العربى متجسدا أمامه . أما هى .. فتحمل حلما بمستقبل جديد مع ابن مفقود .. المستقبل سيكون فى أرض جديدة أرض الواقع الإنسانى .. نقطة التقاء أشعة السلام .. والأمن .. والحب .. والتاريخ .. كانت ليلة هادئة .. تلك التى قضياها فى العقبة .. وفى الصباح راحت « ماريان » تستعيد حيويتها التى أماتتها الذكريات .. ووقفت أمام المرآة فى حجرة الفندق تمشط شعرها على الطريقة اليهودية .. حتى لا يشعر من يقابلها بأنها غريبة .. وهى التسريحة التى اعتادت حبكتها من قبل .. أيام كانا يعيشان فى اسرائيل قبل حرب الغفران بسنوات .. وكان معها الطفل « آرى » .. وقطعت الصمت فى الطريق الطويل وهما بالسيارة .. قالت :

– حمدان .. هل يمكن العثور على آرى ؟

– سوف نفعل المستحيل يا سيدتى .. إن الله يجمع الشتيتين بعدما يظنان كل الظن أن لا تلاقيا .. ثق فى الله يا سيدى ..

□ □ □

سحب من الخيالات يثيرها العقل .. وسط جو الصحراء الساكن .. والركاب ما بين نائم أو ساهم مستغرق فى التفكير .. وقطعت « ماريان » الصمت ثانية ..

– حمدان .. ما الذى جعلهم لا يعمرون الصحراء هذه ؟ .. إنهم لم يفعلوا شيئا من أجل المستقبل .. إن هدفهم كان التوسع .. لكن من أجل ماذا ؟ ..

– من أجل الخريطة يا سيدتى ..

– إن الخريطة المزعومة كثيرا ما أقلقتهم يا سيد .. لقد خسروا الكثير ولم يحققوا شيئا للمستقبل ... كان الكلام هامسا بين ماريان وحمدان .. حتى فى استراحات الطريق ..

□ □ □

واخذت ملامح المكان تتكشف شيئا فشيئا فى الثقب الشاسع ..

وقال حمدان

–لقد وصلنا .. علينا أن ننزل بعد قليل ..

راحت الشمس تجنح للمغيب .. وماريان وحمدان يتجهان إلى القرية .. واستوقفهما شخص وراح يلقى على مسامعهما بكلمات .. كانت ذات معنى .. وأخيرا قادهما إلى المدينة التى تراءت أبنيتها هنا وهناك .. وغرقا فى ظلمة الليل .. هل حقا هذه هى ريمونة؟ .. إنها كانت صامتة .. محظورة على أهلها الوتة .. إن المفاعل الذرى هنا يقتل الكلمة .. والحركة .. فكيف تعود الحركة ؟ ولاذ حمدان بالصمت .. لكنه لم يخش شيئا قدر تصريح السفر .. تصريح سياحى مثلما تحمل هى ..

وأحست « ماريان » بوطأة المرض .. فلزمت المستشفى لتنام ساعات .. فقد أنهكت أعصابها حتى كادت تسقط من فرط الإعياء .. وبدا « حمدان » قلقا .. إنها رحلة العذاب .. وسط خطين من دموع .. إنه يريد أن يعود بها .. وبالغلام الشاب « آرى » .. فالجميع فى سانت كاترين يرقبون عودة الصبى .. وجوه متعددة .. منها وجوه سوداء .. إنها تنبىء عن وجود يهود سود هنا .. إنهم أكثرية فى هذه المدينة النائية .. رغم حاخامهم الأكبر المعروف ..

فى اليوم التالى صحبت « ماريان » « حمدان » إلى ضواحى المدينة .. وراحت تدق بابا صغيرا .. فانفرج عن كهل عجوز .. راح يتأملها .. لكنها ابتدرته :

– أين آرى .. أريد آرى ..

وحدجها بنظرات متعثرة ..

– من أنت يا سيدة ..

– إننى والدة آرى .. إنه البقية الباقية من حياتى .. ارحم عذابى أيها الحاخام . إننى أرى فى قلوب المتدينين الرحمة ..

وخرج الغلام .. وراح ينظر إلى وجه السيدة .. وإلى حمدان .. وإلى وجه الحاخام متسائلا .. لكن الحاخام قال له :

– هل تعلم أن لك أما احبها ..

– ماريان .. أنا أعلم ماريان يا آرى .. لقد تعذبت من أجلك عشر سنوات .. إنها ليست خطيئتى .. إنها خطيئتهم هم .. هم الذين فعلوا بنا هكذا يا آرى .. والتحت « ماريان » أمامه .. وهو صامت يسدد إليها النظرات ..

– آرى .. هل تذكر الكلب الأبيض الذى أهديته لك فى عيد ميلادك ؟ هل تذكر الإسكافى العجوز صديقك « إيلى » الذى كنت تجلس دائما عنده .. وأهداك أرنبا صنعه لك من الجلد . فكانت عينا الأرنب زرارين أبيضين .. ؟ .. خذ هذا المنديل يا آرى وامسح حبات الرمال التى علقت بساقيك .. وتناول الفتى المنديل .. وأخذ يمسح حبات العرق .. والتراب الذى علق بوجهه .. وراحت تقبل ماريان فاها .. فى شوق .. وقال آرى :

– ولماذا تركتنى هذه السنوات .. ؟

– إنها ظروف الحياة هنا يا آرى .. إن والدك يتقطع قلبه حزنا عليك .. والآن عد معى .. إنه على مقربة من هنا .. إن عودتك .. هى عودة الحياة لنا يا آرى .. ستكون غدا جديدا لنا .

– أين هو ؟ .. هل حقا ما تقولين ؟

– على مقربة من المكان .. إنه لم يقو على القدوم .. وصحبنى هذا الرجل العربى الشهم .. ! أنه حمدان .. آرى .. إن الحياة قد تغيرت .. وستتغير يا آرى .. الحياة ستكون لك من بعدنا .. قل له أيها الحاخام .. قل له إن الشمس ستشرق دائما ..

وودع الحاخام الفتى فى رفق .. ومسح على كتفيه بعبارات الثقة والأمل .. والدعوات وقالت ماريان – ماذا أقدم لك أيها الحاخام الأعظم .. فلقد فعلت الكثير .. وقال الحاخام إن خير ما تقدميه لى هو أن تعلمى هذا الغلام كيف يحيا مع المستقبل .. فالحياة لها معان كثيرة .

□ □ □

وتناول حمدان يد الفتى .. بينما تناولت الأم اليد الأخرى .. ليعودوا إلى حيث توجد الحياة الجديدة .. حياة من لون آخر .. وذات طابع جديد .. لينظروا إلى العالم من فوق قمة المستقبل مع رؤية الغد □